إحــــــــراج

الأزهر الصـــحـــراوي *

أمس عاد حمدان، جارُنا وزميلُ والدي في الشّغل، إلى زوجته وأولاده. لمحني أتشمّس أمام جوش بيتنا فحيّاني، وأَقْبلَ نحوي، فجعل يَمْسحَ على رأسي، ويَقْرص أذني وخدّي، ويقول بصوته الأجشّ: «سيجيء أبوك بعد غد يا ابنَ أخي. هو في خير ونعمة...»

سألتُه متلعثمًا: «أبي سيجيء... سيجيء؟!» فأجاب مؤكّدًا: «سيجيء. أعود إلى العاصمة غدًا لأعوِّضه في الشّغل، وسيجيء بإذن الله بعد غد.»

فاجأتْه مبروكة، ابنةُ عمِّ أبي بصوتها الرَّخيم المتغنّج، وهي تَنْثر الحَبَّ لدجاجها: «ربِّي يُرْجِعه إلينا سالمًا غانمًا.. ربِّي يخفِّف غربته!» فانطلق حمدان نحوها ليسلِّم عليها، وانطلقتُ أنا إلى أمّي أزفّ لها الخبر. انتفضتْ عائشة في مكانها فرحًا. أما أمي فقد ضحكتْ عيناها، وأرسلتني إلى الدكّان القريب لشراء رطل من السكّر ونصفِ رطلٍ من مسحوق الحنّاء، وأرسلتْ عائشةَ إلى زوجة حمدان لتستعير بعضَ الشبّ. ولم يلبث البيتُ الصّغيرُ أن انقلب ورشةً أو مَخْبرًا لإعداد بعض مستحضرات التجميل.

❖ ❖ ❖

لمّا أرخى الليلُ سدولَه تناوبتُ وعائشة على شدّ القنديل وتقريبه من أمّي، التي خَضّبتْ شعرَها الأشيبَ المنتفش بالحنّاء. وكانت تتحسّر على حظّها التعس، وهي تَضع ما تبقّى من الخليط على شقوق عميقة في مؤخّرة قدميْها وتردِّد: «سأستر عيبي، سأخفي شيبي!» وكأميرةٍ متنفّذةٍ أَمَرَتْ عائشةَ بلهجةٍ حازمةٍ أن تُنزل إناءً نحاسيًا مقعّرًا من فوق الكانون.

صاحتْ بي موبِّخةً وكأنّي قتلتُ لها قتيلاً: «أنظر إليَّ.. راقبْني جيِّدًا.. هيا نظِّفْ أنفكَ قليلاً.. تخلّصْ من مخاطك.. مخاطُكَ أخضر مقزِّز.. لقد كبرتَ!» فهجمتُ على أنفي أَعْصره وأنظّفه بكمّ مريولي.

بعد دقائق قليلة أرسلتْني إلى جارتنا جميلة، وهي تقول مؤكّدةً: «قلْ لها تسلِّم عليكِ أمّي، وتريد قدومَكِ في الحال.» فانطلقتُ إليها مسرعًا، ولم أبارحْ بيتَها حتى رافقتني متثاقلةً إلى بيتنا.

حين دخلتُ عليهما بعد حين رأيتُ أمّي كالعارية، وجميلة تُزيل عنها شعرَ رجليْها ويديْها. جعلت المرأتان تتحدّثان بحديثٍ لم أفقهْ منه الكثيرَ، ثم سرعان ما أخرجتْنا جميلةُ من البيت وأغلقتْ دونَنا البابَ.

سمعنا، ونحن في الخارج، تأوّهاتٍ عميقةً تُصْدرها أمّي، وشتائمَ بذيئةً تصبّها على جميلة. «تبّت يداك... يداك مؤذيتان... ثقيلتان كأنّهما كلاليب نارية أو مسامير حادّة.» وفي المقابل، كانت جميلة تقرقر وهي تقول: «يا لطيف يا لطيف... كأنّه شوك قنفد أو شوك سدر!»

منذ ساعات الصباح الأولى أعدّتْ أمي العدّةَ لتستحمّ. أيْقظتنا على غير عادتها وأَخْرجتْنا من البيت، وأغلقت الباب من ورائنا، فأَخَذْنا نَنْظر إلى الطريق الجبليّ الذي يبدو من خلال التوائه في ذلك الصباح كأنّه ثعبانٌ يتشمّس. كنّا ننتظر إطلالةَ أبي من بعيد، فما إنْ يرانا أمام البيت حتى يلوِّح بيده، فننطلق إليه طائريْن بلا أجنحة: عائشة تعدو أمامي وأنا خلفَها أحاولُ اللّحاقَ بها. كانت عائشة تقول لي «سيَجْلب أبي معه الحلوى واللوبانَ والكعكَ والكاكاو المقليَّ والشايَ والبرتقال.. سنَجْلس فوق الحصير، ونقشّر البرتقال، ونشرب الشاي.»

نادتنا مبروكة، لمّا رأتنا كاليتيميْن، والبابُ مغلق دونَنا. وحينما اقتربنا منها همستْ في آذاننا كالناصحة «سيَقْتل أبوكم أمّكُما غالية عندما يجيء! سيَقْتلها ليلاً عندما تخْلدان إلى النوم. لا تبوحا بهذا السرّ. لا تُعْلما أحدًا. عليكما الانتباه. يجب أن تتناوبا على النوم كي لا ينجح في تنفيذ فعلته هذه الليلة. فإذا ما سمعتما حركةً عنيفةً أو حشرجةً أو أنينًا، فعليكم بالصّراخ والعويل، واستنجدا بي لنُحْبطَ الجريمة!»

سمعتْ مبركة صوتَ أمّها الضّريرة تناديها وتستحثّها على القدوم، فانطلقتْ إلى بيتهم القرميديّ الكبير مسرعةً، وانشغلنا نحن بحديثها، ودَبَّ فينا الوجومُ والارتباك، والتحقنا بها لنستفسرها، فقالت «اكتما السرّ.. لا تبوحا بأيّة كلمة.»

* - كاتب من تونس

كانت مبروكة في مثل عمر أمي، شقراءَ، طويلةً لحيمةً، كثيرةَ الضحك والبكاء. وكثيرًا ما كانت تَنْشب بينها وبين أمّي المشادّاتُ الكلاميةُ الحامية، وتتوَّجُ بالشتائم والتشابك بالأيدي. وكانت تقول لأمي: «خطفتِهِ منِّي يا سحّارة، يا خطّافةَ الرجال..» فتجيبها أمي شامتةً «هو زوجي وعماد بيتي موتي بحسرتك وغيرتك!»

عندما دخلنا البيتَ وَجَدْنا أبي قد وصل في غفلةٍ منّا. سلّمنا عليه ببرود وحذر كانت أمّي تجلس إلى جانبه فوق الحصير، والكانونُ تلتهب جمراتُه، ورائحةُ الشاي تملأ أرجاءَ البيت الصغير. كانت أمّي تتفرّس في ملامحه مرّةً، وتزوِّد البرّادَ بالماء أو السكّر مرّةً أخرى، وأنا في حجْرها، وعائشةُ على ركبة أبي كانت أمي تلوك العلكةَ، فينكشف نابُها المذهّبُ، وتحدّثه بالتفصيل المملّ عن كلِّ ما حدث أثناء غيابه. وكانت تشكوه شقاوتي وكثرةَ خصوماتي مع عائشة وأولادِ الجيران والأقارب، وتُعْلمه بصراعاتها العابرة مع الجارات، وهو يدخِّن بنَهَم ويصغي بما يُشْبه الاهتمام إلى ما تقول «مبروكة، ابنة عمّك، تلك البقرة السمينة، أهانتني! لم تتركني في حالي. أهملتْ أمَّها الضريرة، وحاصرتْني. تصوَّرْ ماذا قالت لي **خطفتِه منِّي يا سحّارة يا خطّافة الرِّجال**. فأقول لها: **هو زوجي وعمادُ بيتي.. موتي بحسرتك وغيرتِك!**»

❖ ❖ ❖

هجم الليلُ، فتعشّيْنا بسرعة وصمت كانت أختي تَنْظر إلى أمي المرشَّحة للعبِ دور الضحية، وكانت نظراتُ أبي الحادّة ترشّحه لأن يكون مجرمًا وقاتلاً بامتياز: فوجْهُه الأصفرُ الشاحب، وعروقُه النّافرة، وسُحُبُ الدخان التي تَنْبعث من فمه ومنخريه، وتنهّداته العالية والمتلاحقة، كلُّها تؤكّد ما قالته مبروكة.

انفجرتْ أختي باكيةً خوفًا على رأس أمي، فأقبلا عليها يستجوبانها ويستفسرانها. قرصتُ يدَها وتكلمتُ نيابةً عنها «لقد كانت تَنْتظر الحذاءَ الرياضيّ الذي وَعَدَها به أبي. أَبْكتها الخيبة.» سحبْتُها من يدها، وأخذتُها إلى سريرها في الناحية الأخرى من الغرفة، وهمستُ في أذنها «لا تنزعجي لا تحزني. سأَجْعل المصباحَ الكهربائي الصغير تحت المخدّة. سنُحْبط الخطّة وسيغادر البيتَ غدًا. ستَنْجو أمي بإذن اللّه »

تذكرتُ صوتَ مبروكة وهي تقول مهدِّدةً أمي: «واللّه سأحرمُكِ. سأجعل حياتَكِ حنظلاً. هو لحمي ودمي، وأنت الغريبة!» أصيلةٌ أنتِ يا مبروكة، ونبيلة كشفتِ نواياه الدنيئةَ، وأنقذتِ أمي. صحيح أنّك تكرهينها، لكنّكِ لا تريدين موتَها بهذه الطريقة الغادرة. عظيمةٌ أنتِ يا مبروكة

جلستْ أمي حَذْوَنا، وجعلتْ تَمْسح على رأسي وهي تَشْرح لنا الظروفَ التي مرّ بها والدي في الغربة. أما أبي فخرج ليقتني السجائر، ولم يلبث أن دلف مسرعًا إلى غرفة نومه، فأغلق الباب، وأمر أمّي قائلاً: «هيا أطفئي الضوءَ وغطّيني.»

نهضت المسكينةُ مذعورةً دون أن تغطّينا كعادتها، فأطفأت النورَ سمعْنا صريرَ السرير الحديدي. تعالى نُباح كلبنا، فجاوَبتْه كلابٌ أخرى. ثم صدح صوتُ المذياع الكبير، فابتلع كلَّ الأصوات الأخرى. انقضت دقائقُ قليلةٌ، وبدأ صريرُ السرير يتعالى من جديد. سمعنا أنينًا خافتًا تُصْدره أمّي. قفزتْ أختي باتجاه سريري، وجعلتْ تَضْغط يدي ورأسي تعالى الصوتُ أكثر. تتابعت همهماتُ أبي حينها نهضتُ بسرعة، المصباحُ في يدي اليمنى، ويدُ أختي تُمْسك بمريولي، واتّجهنا صوبَ غرفة النوم. «الآن، في هذا الظلام الدامس، سيَقْترف جريمتَه ويتركنا بلا أمّ.»

اقتحمنا البابَ الخشبيّ الرثّ بنجاح لعلع صوتانا في ظلام الليل انفجرْنا باكيَيْن بحرقةٍ وذعر وجّهتُ إليهما نورَ المصباح، في حين صاحت أختي بأعلى صوتها منادية : «مبروكة الحقي بنا يا مبروكة. اسرعي يا مبروكة!»

كَشَفَهما نورُ المصباح. توقّف أبي عن المضخّات التي كان يقوم بها فوق أمّي، وكَفَّ عن خنقها ساحبًا يديْه من عنقها ويبدو أنّ أمي حاولت الدفاعَ عن نفسها كي تبقى حيّة من أجلنا؛ فقد طوّقتْ ظهرَه برجليْها لتشلَّ حركتَه.

تعالت الأصواتُ في البيت الصغير: أنا أولول، وأختي تعوي عواءً عاليًا، وأبي يُزَمْجر ويشتم ويَأْمرنا بالخروج ويهدِّد ويتوعّد وهو ملتفٌّ بالغطاء، وأمي تردِّدُ وهي كالمغمى عليها: «يا فضيحتي. يا فضيحتي. اشمتي يا مبروكة. اشمتي!»

في تلك الأثناء بالذات كان صوتُ المهراس يَنْبعث من بيت مبروكة مثلَ أجراس كنيسةٍ تَقْرع في أعيادِ الميلاد.

تونس